من روائع الشعر الاندلسي

رثاء الأندلس

لشاعر أندلسي مجهول

. . . . قصيدة بليغة من الأدب الأندلسي الرائع تصف أحسن وصف المأساة الأندلسية لم نعثر على قائلها ، وقد طبعها لأول مرة على ما يظهر الأستاذ الدكتور صوالح بعد بالجزائر سنة ١٩١٤ مع ترجمة فرنسية وبعض تعليقات بالفرنسية ذكر فيها أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة ، وأشار إلى أن صحيفة الزهرة التونسية نشرت نتفاً منها منذ سنوات وطلبت من الادباء أن يطلعوا عن صاحبها إذا عرفوه ، ولكن لم يجب الصحيفة أحد : فبقي صاحبها مجهولا ؟ وقد عرضتها على المؤرخ المغربي الكبير السيد محمد بن علي الدكالي السلوي فذكر لي أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية ، ولعله أبو جعفر بن خاتمة ، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الاسكوريال

ولقد احببت أن أرسل إليكم نصها لكي تنشروه في مجلتكم الحافلة إذا راقكم لعل بين المشتغلين بالأدب الأندلسي من له معرفة بقائلها فيعلنه

سلا — مراكش عبد الرحمن حجي

أحقاً خبا من جَوِّ رندَة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازهها ذات العلا وقصورها

أحقاً خليلي أنَّ رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلُها وعشيرها

وهُدَّت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها

وكانت عقاباً لا يُنال مطارُها ... ومعقل عز زاحم النسر سُورُها

هوت رندة الغراء تم حصونها ... وأنظارها شنعاء (كذا) عز نظيرها

وقد كن عقدا زين القطر نظمها ... فقد فتح الآن البلاد نثيرها

وفرق شمل المؤمنين لهيبها ... وقطع من أرحامهم زمهريرها

تسلمها حزبُ الصليب وقادَها ... وكانت شروداً لا يقاد نَفورُها

وقد ذهبت أديانها ونفوسها ... وقد دثرت تحت السباء دثورها

فباد بها الاسلام حتى تقطعت ... مناسبها واستأصل الحق زورها

وأصبحت الصلبان قد عبدت بها ... تماثيلها دون الاله وصورها

لقرع النواقيس اعتلى بمنارها ... كراثه أصوات يروع صريرها

فيا ساكني تلك الديار كريمة ... سقى عهدكم مزن يصوب غميرها

أحقاً أخلائي القضاء أبادكم ... ودارت عليكم بالصروف دهورها

فقتل وأسر لا يفادى وفرقة ... لدى عرصات الحشر يأتي سفيرها

لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم ... سوى حُرَق سُحم تلظى سعيرها

ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ... ولا تنقضي أشجانها وزفيرها

ونفس على هذا المصاب حزينة ... يذوب كما ذاب الرصاص صبورها

وقلب صديع ماج فيه بلاؤه ... سويداؤه سوداء جمٌّ ثبورها

سأبكي وما يجدي على الفائت البكى ... بعبرة حزن ليس يرقا عبورها

شآبيب دمع بالدماء مشوبة ... يساجل قطرُ الغاديات درورها

عويلا يوافي المشرقين بريحه ... وثكلا بأقمار قد أطفئ نورها

فواحسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها

ووا أسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورها

فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى ... وآياتها تشكو الفراق وسورها

وكم من لسان كان فيها مرتِّل ... وحفل بختم الذكر تمضي شهورها

وكم من فتى ثبت الجنان مهذب ... يود المنايا وهو كان يديرها

يصول على الأبطال صولة ضيغم ... فيرهبه شبل الشرى وهصورها

له في سبيل الله خير نقيبة ... تزان لها عين الجنان وحورها

له في جناب الكفر أجدى نكاية ... وشعواء غارات يثاب مغيرها

يُراع لها دين الصليب وحزبه ... ويحزى بها غصالها وزُمِيرُها

وكم أنفس كانت لديه أسيرة ... فأضحى لعمر الله وهو أسيرها

يحكم فيه الشرك وهو موحد ... كما قد قضى جبارها ونذيرها

وكم طفلة حسناء فيها مصونة ... إذا سفرت يسبي العقول سفورها

تميل كغصن البان مالت به الصبا ... وقد زانها ديباجها وحريرها

فأضحت بأيدي الكافرين رهينة ... وقد هتكت بالرغم منها ستورها

وقد لطمت وا حرَّ قلبي خدودها ... وقد أسبلت وادمع عيني شعورها

وإن تستغث بالله والدين لا تغث ... وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها

وقد حيل ما بين الشفيق وبينها ... وأسلمها آباؤها وعشيرها

وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها ... على الذل يطوى لبثها ومسيرها

وشيخ على الاسلام شابت شيوبه ... يمزق من بعد الوقار قتيرها

وكم فيهم من مهجة ذات نجدة ... تود لو انضمت عليها قبورها

لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها

وكم من صغير حيز من حجر أمه ... فاكبادها حراء لفح هجيرها

وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

وكم من شقيٍّ يسرت هذه له ... سبيلاً إلى السعري يحيف كفورها

كروب وأحزان يلين لها الصفا عواقبها محـــذورة وشرورها
فيا فرحة القلب الذي عاش بعدها ويا لعمى عين رآها بصـــيرها
ويا غربة الاســلام بين خلالها ويا عشرة أنّى يقـال عثورها
ويا ليت أمي لم تـلدني وليتني بليت ولم يلفح فؤادي حرورها
وماخير عيش يعذب الموت دونه ويغبط قل الأهل فيه كثيرها
فيا ليت شعري بعد ماسح موتها أيرجى على رغم المداة نشورها
ويا ملة الاسلام هل لك عودة لأرجائها يشفي الصدور صدورها
وهل تسمع الآذان صوت الأذان في معالمها تعـــلو بذاك عقيرها
ويا لعزاء المؤمنين لفاقـــة على الرغم أغنى من لديها فقيرها
لأندلسَ ارتجت لها وتضعضعت وحق لديها محوها ودثورها
منازلها مصـدورة وبطاحها مدائنها موتورة وثغـورها
تهائمها مفجوعة ونجودها وأحجارها مصدوعة وصخورها
وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ملابس حسن كان يزهو حبورها
فاحياؤها تبدي الأسى وجمادها يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها
فلو ان ذا الف من البين هالك لذابت رواسيها وغاضت بحورها
على فرقة الدين الذي جاءها به بشـير الأنام المصطفى ونذيرها
فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة قداستفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها
وجزت نواصيها وشلت يمينها وبدل بالويل البـين سرورها
وقد كانت الغربيّـة الجُنَنَ التي تقيها فأضحى جنةَ الحرب سورها
وبلّش قطت رجلها بيمينها ومن سريان الداء بان قطورها
وضحّت على تلك الثنيات حجرها فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جثتَ المنكب فاعتبر فقد خف ناديها وجفّ نضيرها
وسكّرُها قد بدل اليوم علقما لها رجة نار الهيـام تثيرها
وعرجْ على الاقليم فابك ربوعها بسحب بيضاء المصرات خريرها
وودع بها وقد النعيم فانها لها أدمع فين الدموع يميرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطة التي هي الحضرة العليا زهت زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها ولا في بلاد الله طراً نظيرها
تُرَى الأسى أعلامها وهي خشع ومنبرها مستعبر وسريرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها وبتت لها اليمنى وحم تبورها
فأنفسها في الصعق دون افاقة كنفس كليم الله إذ دك طورها

وقد ذعرت تلك البنيّات حولها فهن بواكي الأعين الرمد سُورها
وقد رجفت وادي الأسى فبقاعها سكاري وما استاكت بخمر ثغورها
لقد اظلمت حتى لفرط حدادها سواء بها نجل العيون وعورها
وبسطة ذات البسط ما شمرت عا دهاها وأنى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها وما كابدت من ذا المصاب نحورها
وما أنس لا أنس المرية إنها قتيلة أوجال أزيل عـذارها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا أصدقائي ودعوها كريمة أو استودعوها مَن اليه أمورها
منازل آبائي الكرام ومنشئي وأول أوطان غذاني خيرها
وأقروا عليها من سلامي تحية تجددها آصالها وبكورها
أمانانها ضاعت فضاعت رقابها لقد عميت عين تبـدد نورها
أضعنا حقوقَ الرب حتى أضاعنا وقضت عرى الاسلام إلا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا كذا السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا ويؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا وعاثت بنا أسد العدا وغورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا وأموالنا فيئا أبيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق عليها فوفّت للصليب نذورها
وقد كثرت ذؤبانها وكلابها وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذٍ مالنا قِبَلٌ بها جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمتحي إلا بمحو أصولها ولا تنجلي حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه وزعزع من أكنافه مستطيرها
أدارت على غربية الدهر أكؤساً فظاعا بسكر الدهر تقضي خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن وعضّ بأكباد التقاة عَقُورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها نداء سراة القفر إذ ضل عيرها
وأستنفر الأدنى فالادنى فريضة على زمر الاسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها فليس يؤدي الفرض إلا نفيرها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا وردوا ظُلامات بيبد نقيرها
ومن كل ما يردي النفوس تطهروا فليس يزكي النفس إلا طهورها

لا واستعدوا للجهاد عزائما ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جُرد من الخيل سبق ... يدعُّ الأعادى سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... إلى الله من تحت السيوف مصيرها
تروم إلى دار السلام عرائساً ... على الله فى ذاك النعيم مهورها
وضرب كأن الهام تحت ظلالها ... حثالة نور الورد ذرّ ذرورها
وطعن يرى الخطّىّ فى نهج العدا ... كأقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا ... وتحظَوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة ... تدين بدين الحق وهو نصيرها
وان أنتمُ لم تفعلوا فترقبوا ... بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة ... يطاول آناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة ... حبتها على طول الليالى خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمة ... وأعلاق أموال خطير خطيرها
وحق العظيم الشان لا عيش بعدها ... بلابا يمر الطيبات مرورها
فترفع شكواها لعالم سرها ... فليس لها فى الخبر الا خبيرها
غدا كف الذل فى باب عزه ... بفائدة خوف الفراق يطيرها
فان لم يُقِل ربّ العباد عثارنا ... فهذا العدو الضخم حتما يبيرها
الّه الورى ندعوك يا خير مرتجى ... لكالحة هن الصليبَ سرورها
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت
عيونهمُ والكفر ظل قريرها
وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ ... إذا لم يكن منك التلافى ظهيرها
أغث دعوات المستغيثين انهم ... ببابك موقوفو الحشاشات بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلة ... شفيع الورى يوم التنادى بشيرها
امام الهدى بحر الندى قامع العدا ... وأول رسل الله فضلا أخيرها
محمد المختار من آل هاشم ... سراج السموات العلى ومنيرها
دعوناك أملناك جئناك خشعا ... بأنفس أستولى عليها قصورها
نجاه العظيم الجاه أدرك ذماءنا ... برحمى يُحلّى المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مؤزر ... وعزة سلطان يروق طريرها
ولطف وتسديد وجبر لما مضى ... يدال به من كل عادٍ كسيرها
وأرسل على هذا العدو رزيّة ... يروح وينـدو بالبوار مبيرها
يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة ... وينظم شمل المؤمنين حصيرها
وصلّ على خير البرية أحمدٍ ... وأكرم من قد أنجبته ظهورها
وأصحابه الشهب الهداة وآله ... صلاة مع الآناء يزكو عبيرها

تنبيه — قد وضعت لفظة (كذا) على بعض الكلمات فى القصيدة اشارة لعدم ملاءمة اللفظة للمعنى أو لاضطراب فى الوزن

الاشتراك المجانى فى الرسالة
لدخولها فى سنتها الرابعة

(١) ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٦ إلى ٣١ منه سيكون الاشتراك فى الرسالة على النحو الآتى :

م

٥٠ فى مصر والسودان
٤٠ لطلاب العلم ولرجال التعليم الالزامى
٦٠ فى البلاد العربية بالبريد العادى
٥٠ لطلاب العلم فى البلاد العربية بالبريد العادى

(٢) إذا دُفع الاشتراك المخفض فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ أهدى إلى المشترك مجموعة من السنة الثانية أو مجموعة من السنة الثالثة ؛ وثمن كل منهما ستون قرشاً مصرياً . وأجرة البريد على المشترك ، وقدرها خمسة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٣) إذا دُفع الاشتراك الكامل فى أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ وقدره ستون قرشاً فى مصر ، وثمانون فى البلاد العربية ، أُهدى إلى المشترك نسخة من كتاب (ضحى الاسلام) أو (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين ، أو من كتاب (وحى القلم) للأستاذ الرافعى ، أو من كتاب (تاريخ الأدب العربى) للأستاذ الزيات ؛ أو كتابان يختاران من الكتب الآتية : آلام فرتر ، رفائيل ، فى أصول الأدب ، للاستاذ الزيات ؛ قصة المكروب ، مرجريت ، للدكتور أحمد زكى ؛ مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، قصص اجتماعية ، للأستاذ عنان

وأجرة البريد مسجلا على المشترك وقدرها عشرة قروش فى الداخل ، وعشرون قرشاً فى الخارج

(٤) يقبل الاشتراك الكامل والمخفض أقساطاً من طلاب العلم ورجال التعليم الالزامى ، ولا يقل القسط عن عشرة قروش ولا تعطى الهدية إلا مع القسط الأخير